"فريق ابحاث المغرب العربي"

تشريح الذهنية العربية بأدوات عمل غربية

يوماً بعد يوم، يفرض العالم العربي نفسه في مجال العلوم الانسانية كمادة في انتظار التحليل الدقيق، المشخص، الموضوعي، وكفاعل في هذه العملية بعض الأحيان. وهنا تقترن عملية التحليل بالممارسة العيانية ، ويصبح البحث نظرة موجهة من الداخل الى الداخل ، اكثر منها محاولة تعاطف خارجي.

هذا ما نجده لدى «فريق ابحاث المغرب العربي»، الذي تأسس قبل خمس سنوات تحت رعاية «مختبر علم النفس ـ العيادي، الفردي والجماعي»، التابع لجامعة باريس السابعة للعلوم الانسانية.

يجتمع في هذا الفريق باحثون من اقطار المغرب وفرنسيون يبحثون في المعاناة الفردية والاجتماعية في هذه الأقطار. وفي العام الفائت، خصص المختبر المذكور كتابه السنوي لأعضاء هذا الفريق، وكان عبارة عن مجموعة ضخمة من الأبحاث المتمحورة حول «المعاناة النفسية والثقافية».

في هذا الحوار الذي شئناه تعريفاً بعمل الفريق وآفاق تجربته وبحثه، اكثر منه ندوة متفقهة، التقينا بالتونسي فتحي بن سلامة والجزائرية شريفة عمارة والفرنسي اوليفييه دوفيل.

"لا درس نقدمه للآخرين"

■ **هل لكم ان تحدثونا عن تشكل فريقكم الباحث وعن تاريخه؟**

العربي، تجد خلاصة عنها في العمل الجماعي المذكور.

ـ اوليفييه دوفيل: انا اعمل في مركز للطب النفساني في احدى ضواحي باريس. اهتممت في ممارستي العيادية، بالمهاجرين الأفارقة الشماليين بوجه خاص. التقيت فتحي بن سلامة، لأول مرة، في ندوة عن موضوع «الهجرة» وعن طريقه تعرفت على بقية الفريق. وجئت للفريق بنص تحليلي ـ عيادي يتناول حالة شاب مهاجر موزع بين مجالين دعوتهما: «الهنا» و«الهناك». كانت تلك بالنسبة الي، بداية للشروع في تفكير جدي حول كيفية العناية بحالات كهذه في مراكز الطب النفساني.

ـ شريفة عمارة: اعنى بدراسة علاقة الفتاة بأهلها في اقطار المغرب، في الجزائر بخاصة. وكذلك بممارسة التحليل النفسي في هذه الأقطار.

المقاومة وبواعثها

■ **يجمع المعنيون بالتحليل النفسي في المغرب والعالم العربي عموماً على تعرض**

يستند الى خلفية واسعة من الفلسفات والمعارف والأفكار. ولكنه يتعامل مع هذه كلها من خلال قطيعة، ومن خلال عمليات هدم وبناء متلاحقة.

ـ دوفيل: اعتقد ان بالامكان التساؤل ايضاً عما اذا لم يكن رواج التحليل النفسي حالياً، وطريقة انتشاره الساحقة في العالم، هي المسؤولة عن هذه الممانعة لدى بعض المجتمعات. في الولايات المتحدة مثلاً، التي يتم فيها الرجوع الى التحليل والطب النفسيين على نطاق واسع، تحول هذا الرجوع فيها الى ممارسة نمطية ومكررة ومحتواة من قبل نظام المؤسسة، بحيث اصبح من اللازم التساؤل اذا لم تكن طبيعة هذه الممارسة تساهم، بقدر أو بآخر، في توليد النفور شبه المعمم من التحليل النفسي. ويشمل هذا النفور أول ما يشمل الثقافات غير المتطورة بعد في العلوم الانسانية، كالثقافة العربية على سبيل المثال.

ـ عمارة: اننا نواجه مثل هذه المقاومة حتى في باريس، وفي اوساط ثقافية يدهشنا الاهتمام الضئيل الذي يمحضه افرادها للتحليل النفسي. «المكتوب»، بالمصير وقد صيغ وتم تحديده «من ذي قبل» و«من اعلى».

ـ دوفيل: اعتقد ان فكرة القدر أو المصير هي فكرة شاملة، ونحن نقابلها لدى كل فرد يجرب التحليل النفسي أو العلاج النفساني. انه يبدو محدداً ومشروطاً بشيء ما يسبقه، هو «تاريخه». من هنا، يمكن للتحليل النفسي ان يأتي باجابة موضحة، بما انه دعوة الى الغوص في اعماق هذا التاريخ. ومن هنا تتبع خطورته وربما احد البواعث الأساسية لمقاومته.

مقاربة السحرة

■ **الا يتمثل احد بواعث المقاومة، ايضاً، في غلبة الثقافة التقليدية عندنا حتى الآن، خصوصاً ان جانباً لا يستهان به من ابناء الفئات الاجتماعية الفقيرة لا يزال يستعين بالقدرات «الاشفائية» للسحرة والمرابطين؟**

ـ بن سلامة: اعتقد بذلك الى حد ما. لقد نشأ التحليل النفسي ابتداء من محاولة فرويد اعطاء لغة للاوعي. الا ان اللاوعي لم يكن مجهولاً قبله. هذا ما يحيلنا دفعة واحدة الى قضية السحرة والمرابطين في بلادنا.وانهم «يشخصون» بعض العقد النفسية ويحددون بعض العلاجات من خلال قراءة حدسية لا نفهمها نحن لطبيعة «الزبون» الشخصية. ولقد قام عدد من الباحثين باجراء مقاربات بين المجال العلاجي والبنية الاجتماعية. ان من غير الممكن استيراد وممارسة علاجية من اليابان وادخالها على الفور في عالم آخر، وان كانت بعض المحاولات تنجح في بعض الأحيان. من هنا، ربما كان يمكن القول بأن العلم الفرويدي لا يزال غريباً على افريقيا الشمالية والمجال العربي بعامة. ان كل ممارسة تلقى «ترجمة» مغايرة، نوعاً ما، في المجال الاجتماعي والفردي الذي يستقبلها.

النفسيا بالدوسي فتحي بن سلامه والجزائريه شريفة عمارة والفرنسي اوليفييه دوفيل.

"لادرس نقدمه للآخرين"

■ **هل لكم ان تحدثونا عن تشكل فريقكم الباحث وعن تاريخه؟**

- فتحي بن سلامة: دخل فريقنا سنة عمله الخامسة في هذا العام. ومنذ البداية، شئنا ان يشكل الفريق مجالاً للتفكير والبحث، يلتقي فيه باحثون معنيون باشكاليات المغرب العربي وظواهره، آتون من جنسيات وآفاق مختلفة. باحثون يعملون في مجالات علم الأعراق والسوسيولوجيا وعلم النفس، برغم ان المجال النفساني لا يزال غالباً في عملنا حتى الآن. إن قيام الفريق هو ثمرة اتصالاتنا ونشاطنا في جامعة باريس السابعة، ومنذ لقاءاتنا الأولى تمحور البحث حول هذا الموضوع الأساسي: العلوم الاجتماعية وكيفية استخدامها في وعلى العالم العربي. المجال المغربي منه بوجه خاص.

منذ البداية ايضاً، اتجه اختيارنا ليس الى تقديم محاضرات أو عقد ندوات، وانما الى التشاور، بنحو دوري، حول الأعمال الجارية والأبحاث المقدمة، ومحاولة تكوين وجهة جماعية لأبحاثنا الفردية.

يهمنا ان نشير ، في البداية، الى اننا لا نملك رسالة أو درساً نعطيهما للآخرين، بل اننا، على العكس من ذلك، سئمون من سعي البعض الى «تغيير» العالم والمجتمع والفكر بكثير من التعجل، وبدون ان يكلفوا انفسهم عناء فهم وتحليل العالم والمجتمع والفكر. هدفنا هو العمل والبحث، قبل الادعاء بحيازة شيء يمكن ان نقدمه للجمهور. التعمق في التفكير، داخل مسار متواصل منتظم، وبطيء.من هنا ترى ان اول مشروع في البحث قمنا بنشره لا يعود الا لما قبل سنة واحدة فحسب. هذا عدا مساهماتنا الفردية، بالطبع، على صفحات هذه المجلة أو تلك.

■ **ماذا عن نشاطاتكم الفردية هذه؟**

- فتحي بن سلامة: فيما يتعلق بي، اعنى انا بصورة اساسية بدراسة علاقات الاسطورة، أو الفكر الغيبي، بالبنية النفسية. وقد وضعت في هذا المضمار دراسة عن اغاني تنويم الأطفال في المغرب باهلها في اقطار المغرب، في الجزائر بخاصه. وكذلك بممارسة التحليل النفسي في هذه الأقطار.

المقاومة وبواعثها

■ **يجمع المعنيون بالتحليل النفسي في المغرب والعالم العربي عموماً على تعرض التحليل النفسي في هذا العالم الى ممانعة شديدة، ان لم نقل الى رفض. ما هي في رأيكم دوافع هذه الممانعة؟**

- بن سلامة: لقد تعرض التحليل النفسي في بداية نشوئه الى مثل هذه الممانعة أو المقاومة حتى في بلد كفرنسا. وربما كان دافعها الأول كامناً في ان التحليل النفسي لا يمثل علماً اعتيادياً. انه علم باللاوعي، اي بما لا تمكن معرفته والعلم به علماً حصرياً. انه لا يدخل، بذلك، في فئات التقسيمات الكلاسيكية للمعارف والعلوم الانسانية، وان كان من التحليل النفسي. ويشمل هذا النفور أول ما يشمل الثقافات غير المتطورة بعد في العلوم الانسانية، كالثقافة العربية على سبيل المثال.

- عمارة: اننا نواجه مثل هذه المقاومة حتى في باريس، وفي اوساط ثقافية يدهشنا الاهتمام الضئيل الذي يمحضه افرادها للتحليل النفسي. وفي اوساطنا (العربية) اعتقد ان الأمر مرتبط بنمط معين من التفكير، نمط متوارث. تسأل احداً عن صحته، فيجيبك «الحمدلله» بصورة تلقائية...هذا مثال بسيط بالطبع، ولكنني اود الاشارة الى الصعوبة في ان يقول المرء: «انا».

- بن سلامة: ليس هذا امراً محصوراً بثقافتنا وحدها. ان انسحاب الأنا امام المجموع وأمام غير الشخصي، مسألة تشمل الثقافات جميعها تقريباً.

- عمارة: نعم، ولكنها اكثر شمولاً واستمراراً عندنا. انها مرتبطة، في ذهن الأفراد، بـ «المقرر» او علاجية من اليابان وادخالها على الفور في عالم آخر، وان كانت بعض المحاولات تنجح في بعض الأحيان. من هنا، ربما كان يمكن القول بأن العلم الفرويدي لا يزال غريباً على افريقيا الشمالية والمجال العربي بعامة. ان كل ممارسة تلقى «ترجمة» مغايرة، نوعاً ما، في المجال الاجتماعي والفردي الذي يستقبلها.

- دوفيل: اوافق على ما يقوله بن سلامة في تمتع بعض الشافين التقليديين بمقاربة معينة للاوعي. الا ان ثمة اختلافاً بنائياً بين طبيعة الممارستين - هذه والتحليلية النفسية. ففي المعالجة التقليدية، مثلما في الطقوس الجماعية، يتم ارجاع المعاناة الفردية الى الفضاء الجماعي، عن طريق ادخالها مجدداً في مجال الاسطورة والرمزية الشاملة. العكس من ذلك تماماً هو ما يجري في التحليل النفسي. الفرد يعاد هنا من محيطه العام الى تاريخه (الخاص)، الى معاناته الباطنة، والى رموز لاوعيه الشخصي. من هنا تفهم الممانعة امام التحليل النفسي، لأنه يحفز على **رفع** نوع من الرقابة المسلطة على اللاوعي، والتي يفترض ارجاعه الى المجال الاسطوري في الحالة السابقة. ومن هنا تنبع، ناحية اخرى، صعوبة العمل الطبي النفساني خارج المجال الغربي. ان ثمة طلاقاً ، مسافة شاسعة، بين العيادات النفسانية (التي بلغت حدود الكاريكاتورية) عندنا في الغرب، وبين الممارسة «الطبية» المرابطية في المغرب العربي. وبدون التساؤل حول هذا الطلاق وحول البواعث العديدة للممانعة بما فيها البواعث الطبقية، فلا اعتقد اننا سنهتدي الى معرفة القنوات، الاجتماعية أو غيرها، التي ستسهل ادخال المعرفة النفسية والتحليل النفسي الى ثقافة كالثقافة العربية.

- بن سلامة : اشرت قبل قليل الى تمتع الشافين والمرابطين والسحرة بمقاربة حدسية وغير ممفصله لغوياً، للاوعي، ويمكن كذلك الاشارة الى ابداعات المتصوفة وبلوغها درجة غير معهودة في الأنماط الأدبية، الأخرى في استنطاق اصوات اللاوعي وما قبل الوعي. الا انني كلما نظرت، انا القارىء المواظب بالفرنسية والعربية والمقيم في فرنسا منذ ١٢ سنة، كلما نظرت الى ما هو غريب عني، وعن ثقافتي العربية، الى اقصى درجة، وجدت ان الغربة، التي تكاد تكون مطلقة انما يتمتع بها

فتحي بن سلامة: علاقة الفكر الغيبي بالبنية النفسية

التحليل النفسي: هذه المحاولة التي دشنها فرويد الى مصاف العلم. كل شيء عرضه العرب، وربما كانوا رواداً فيه، من مختلف العلوم الى مختلف الفنون. الا هذه المحاولة في احالة الأفعال وردود الأفعال غير الواعية الى لغة، الى نسق، والى نظام.

الا ان هذه الغربة، أو الغرابة، لا يجب ان تكونا مثبطاً نهائياً امام المحاولة الصادقة والجدية في الافادة من التحليل النفسي، الأساسي، خصوصاً، هو عدم اللجوء الى تعليلات كاذبة، يهودية فرويد، مثلاً، أو ابتدائه تجربة التحليل النفسي في عالم فيينا البورجوازي.

الثقافة العربية في العيادة

■ كيف تنظرون، من هذا المنطلق، الى استخدام بعض المثقفين العرب للنظرية التحليلية النفسية؟

- بن سلامة: علي زيعور هو الذي يستخدم النظرية التحليلية - النفسية اكثر من غيره. واستخدامه لهذه النظرية هو، في رأيي، المثال النموذجي للخطر الذي يهدد استعارة العرب للتحليل النفسي. يزعم علي زيعور، أو يريد «تمديد» الثقافة العربية على سرير المحلل. وهو لا يفعل سوى ان يأخذ قوالب جاهزة، هي الأفكار التحليلية - النفسية، ويطبقها على الثقافة العربية، فلا يستثنى منها احد أو شيء. ولا يخرج سالماً من محاولة كهذه لا الثقافة العربية ولاالتحليل النفسي.

ونقابل محاولة مماثلة في المغرب لدى هشام جعيط، الذي يقوم بمسعى مماثل في كتابه عن «الشخصية العربية» حيث يتحدث عن «الأنا» العربية و«الذات» العربية، وسواها من التعبيرات الجاهزة.

- عمارة: ربما كان هذا ايضاً مما يعزز مقاومة التحليل النفسي: الكتابات النظرية المفتقرة الى ممارسة تحليلية - نفسية. وهذا في ذاته نوع من المقاومة.

■ الا تعتقدون ان الثقافة العربية، والحياة العربية بوجه عام، «تمددان» على السرير ايضاً على ايدي فئة ثانية من الباحثين... اقصد محاولة الثقافة الاستشراقية؟

- بن سلامة: لا اعتقد ان المستشرقين يقدمون معرفة اساسية بالعالم العربي، واذا كان لديهم شيء يقدمونه فهو موجه، في الدرجة الأولى، الى ابناء ثقافتهم انفسهم. ويخطيء العرب، في رأيي، حين يأخذون بالـ «معرفة» الاستشراقية للعالم العربي، لأنهم حين يفعلون ذلك فانما يضعون انفسهم في موضع من ينظر من الخارج. ولن تكون هذه نظرة، وانما نظرة لنظرة «الآخر» وقد اخذت على انها نظرة الذات. الى ذلك اعتقد ان الثقافة الاستشراقية مطبوعة بنزعة حنين غامضة.

ولكن من المهم، من ناحية اخرى، ان نعرف كيف ينظر الينا الآخرون، اذا ما نظروا الينا على نحو سيء فتلك مشكلتهم، لا مشكلتنا. المهم هو عدم تبني هذه النظرة، واستدخالها كما لو كانت صائبة ونهائية. ما يحدث الآن في رأيي هو اننا في حالة مطالبة للآخر، أو للغرب. نطالب الغرب بأن يقدم لنا معرفة يحملها هو عنا. في السوسيولوجيا، في التحليل النفسي، وفي مناهج اخرى،وهو يعرف عنا شيئاً بالطبع، ولكننا، نحن، في الدرجة الأولى من نعيره اياه. اننا نعيش حالة من لا يميز بين داخله وخارجه، ومن ينفي نفسه طويلاً في نظرة الآخر، غير المتفهمة ولا المنزهة دائماً. ما يلزمنا، وربما افعل هنا سوى ترديد صيغة مكرسة هو مسافة نقدية أو وعي نقدي، للآخر ولأنفسنا في الوقت ذاته.

- عمارة: بلى، اعتقد ان ما يلزمنا هو تراجع ضروري يسمح بقيام علاقات لعبية. علاقات تسمح بالتعامل مع ثقافة الآخر بدون نفيها كلياً أو قبولها كلياً، وبدون ان تكون ثمة مواجهة دائمة.

- بن سلامة: تحضرني هنا حكاية يرويها الغزالي عن خليفة احضر رسامين صينيين وآخرين اغريقيين، وطلب منهم تزيين جدارين متقابلين، ليرى أياً من الفريقين سيبرع في العمل.

وفيما عكف الصينيون على رسم الجدار وتزيينه، لم يقم الاغريقيون الا بصقل الجدار المقابل واعادة صقله، بحيث عكس، في النهاية، عمل الصينيين بما هو أروع وأجمل. وكان الفريق الاغريقي هو من استثار باعجاب الخليفة. من الممكن تماماً ان تتصور، كواحد من ادوار الثقافة تشرب ثقافة الآخر وردها اليه بحيث يرى نفسه فيها من جديد، على نحو اكثر نصاعة...

■ هل يمكن القول بأن طموحاً كهذا هو الذي يوجه عملكم المزدوج على الحياة العربية من خلال ادوات تحليل غربية في جانب كبير منها؟

- بن سلامة: عمل فريقنا هو البحث في العلاقة بين النفسية الفردية والثقافة. وهي كما ترى، علاقة معقدة ويظل التفكير فيها قائماً، انها تستدعي منهجياً، التوقف عند كل ما المحنا اليه في هذا الحوار.

اجرى الحوار: كاظم جهاد